خمسة في سيارة

٥

سرّ البحيرات

ماذا في البحيرة من سرّ ؟ ولماذا يتوق الناس الى زيارة البحيرات ومشاهدة ما فيها من ماء وما حولها من يابسة ؟ فقد نظم الشعراء العربيون خير قصائدهم على شواطئ بحيرات اوربا وسكن كثيرون من كتابهم وفلاسفتهم على قرب منها

ومن لا يعرف « مقاطعة البحيرات » من قراء الادب الانكليزي او اثر بحيرة ليمان — وهي بحيرة جنيف — وبحيرة لامارتين — وهي بحيرة بورجه قرب اكس له بان — في ادب الفرنساويين

لم تمنح الطبيعة اجدادنا العرب بكثير من الماء ولكنهم قدروه قدره فاحلّوه في خيالهم المحل الاول من الجمال فوصفوه غديراً ونهراً وما عرفوه بحيرة

على ان شهرة البحيرات الاوربية في منشأ تحيط به اليابسة الجذابة — اليابسة الصاعدة فيها الآكام والجبال والمكسوة بالغابات والحراج

هذا هو سرّ جمالها وسرّ استهوائها للناس

فليست هي ماء وخضرة فحسب بل ماء متغير الالوان من فعل النيوم التي تمرّ سراعاً من فوقها وخضرة هي تارة اشجار واخرى ازهار وآونة نبات على صخور صلداء

فهذا التنويع في جمال الطبيعة او هذا الجمع بين ما اعطت الطبيعة من روعة حسن وآية فنّ هو الذي يعطي البحيرات سحرها . فيأوي اليها العاشق الضاحك والعاشق الباكي ويثابها المريض الناقه والشديد المتعب الاعصاب ويرتاح الى لطف جوارها الشاعر ذو الخيال والكاتب ذو الابتكار والفيلسوف الصامت او الفيلسوف الكاتب

وقليل من القراء من لم يسمع ببحيرة جنيف مثلاً . فشهرتها قديمة ولا تزال يجددها الدهر — ادبية فلسفية يذيعها اسم فولتير واسم جان جاك روسو — دينية لاهوتية ينشرها كلفن واتباعه المصلحون الكنسيون — سياسية بدأت بوليم تل ولا تنتهي بجمعية الامم

***

وبحيرة بورجه قرب « اكس له بان » صغيرة لا تقاس ببحيرة جنيف . ماؤها

طريق ضيق السبيل بالجبال من حولها بعضها أصم أقرع وبعضها تكسوه الاشجار. يقوم على شاطئه هذا من سفار دير جمع رفات الدوقات والأمراء والملوك من بيت سافواي كذلك في ايطاليا الآن

تدخل هذا الدير فلا ترى الا أثراً من آثار بيت سافواي فمن تمثال الى صورة الى كتابة وهكذا من اول امير في هذا البيت الى صاحب الجلالة الايطالية الحالي

والولاية فرنساوية الآن . اما الاثر فايطالي . وقد راعت الحكومة الفرنساوية عواطف بيت سافواي المالك فجعلت للدير حرمة سياسية ايطالية في ارض فرنسية

ويقول الذين لا يطمئن الخاطئ ان عين ايطاليا ترنو الى مقاطعة سافواي واخذها من فرنسا

فان نابوليون الثالث ضمها الى فرنسا ثمناً لمساعدته الايطاليين على النمسا

ولكنها لم تكن طليانية كما نفهم القوميات الآن بل ولاية من هذه الولايات المستقلة التي تقدمت نظام القوميات في اوربا

فادعاء ايطاليا بها لا يبرره الا ان زعيم البيت المالك فيهم كان اميراً لهذه الولاية ويتسمى باسمها

على ان البحيرة خالدة لا بالدير ولا بامراء سافواي بل بالشاعر لامارتين . فعلى مياهها وفي قارب صغير يطوف عليها جلس لامارتين الى عشيقته

لامارتين

يغني فيطرب ، ويملأ الدنيا شجواً ويكسب البحيرة والبلدة التي في جوارها خلوداً

وان الزائر ليرى حق الساعة بيت لامارتين في « اكس له بان » بالقرب من نبع المياه المعدنية وهو بفرشه معرض لآثار لامارتين — دع عنك تمثاله القائم على البحيرة نفسها

غريب امر هؤلاء الشعراء !

لهم ملك القلوب ولهم سلطان العقول في الحياة وفي الممات فيأبون — بعض منهم والحق يقال — الا ان يسيروا مع تيار الحياة الدنيا ويتأثروا بما فيها من مجد وسلطة فارغتين فيعبدونهما

اترانم يجهلون انهم هم الخالدون فيضحون بمقامهم العالي في السعي وراء زعيم سياسي او في استجداء ملك ذي عرش . فيزول ذلك العرش وينمحي المتسلط السياسي وحكومته ويبقى الشاعر حيًّا لا يموت

ولو اتسع المقام لدللنا بالبين وبالاصبع على هؤلاء الشعراء في كل زمن وفي كل لسان وفي كل امة

وقد يكون تعليل ذلك طبع الانسان ان ينال كل شيء اذا استطاع — ولكنهُ طمع لا يستند الى عقل يليق بالشاعر — والشاعر الحق عليتُ — فان الشاعر رفيق الانبياء معلماً ومسلياً ومطرباً ومبكياً ومفسراً لكتاب الطبيعة فما باله لا يأوي الى السكن الروحاني ويترك للآخرين هذا العالم الفاني

***

اما بحيرة أنسي فليست مثل زميلتها التي في جنيف . بل هي نقطة في بحرها . وليست مثل التي بالقرب من « اكس لهبان » فالجبال من حولها اقل ارتفاعاً وابهج منظراً بما تكتنفهِ من اشجار خضراء

فهي ماء ينساب بين شاطئين مأهولين بالقرى وبالآكام وبالحدائق تزينها الاشجار المثمرة والازهار الزاهية الالوان

فالماء ازرق حيناً واخضر حيناً وابيض احياناً كأنهُ يأتمر بامر ملك الغيوم فوقهُ وقد تهب الريح تتلاعب بامواجهِ بل تداعبهُ فلا يثور ولا يزبجر كالبحور ثم تمطرهُ الغيوم وابلا يخيل معهُ الى الناظر ان قد تم الاتصال بين السماء والماء فيقصف الرعد ويبرق البرق ايذاناً بهذا الوصل او ابتهاجاً بهِ فان لغة الابتهاج في الطبيعة غيرها في بني آدم . ثم يصبح الصباح وتبرز الغزالة فاذا بالماء فضة مذابة واذا الريح قد عقدت عليهِ درعاً منيعة لا تجمد

وليس لهذه البحيرة شاعر يخلدها — ويغلب على الظن ان الوصول اليها في الايام الماضية لم يكن سهلاً فجهلها الشعراء والكتاب وعرفوا بحيرات اوفر منها حظًّا

ولا اظنها بحاجة الى الشعراء فان هذا القارب يشق الماء بمجذافين احدهما يد شاب يسيل من وجههِ ماء الابتهاج ومن جبينهِ النشاط والآخر يد فتاة تنظر ساعة الى الماء واخرى الى السماء واخرى الى وجه الجالس امامها وتطيل النظر

او تلك الفلك الصغيرة يقذفها في الماء شراع تدار بيد رجل واحدة ويعطف بالاخرى

قواماً كالهباء المنثور . او تلك الآلة المحركة تدفع فلكاً اخرى في الماء دفعاً شديداً لهُ ازيز كازيز الطيارات تذكر العالم انهُ في عصر لا تليق بهِ الاحلام

كل هذه قصايد تغني عن أُنسي الشعراء

ويغنينا عن الكتاب ان على اكمة من الاكام المجاورة للماء قبر الكاتب الافرنسي الشهير وتينهُ ايبوليت تين Taine

***

وجلس صاحبنا المصري تحت شجرة في حديقة الفندق والبحيرة منبسطة امامهُ يتناول ماءها بيده . وحلم وحلم وحلم مفتح العينين في رابعة النهار بعيداً عن الرفاق . ومرت بهِ فلك خالية الا من صاحبها فاستأجرها واستقلها وحده يجذف مارًّا بالقوارب الاخرى مشاهداً في غير ما غيرة او حسد ، ضاحكاً في غير عبث يذكر اياماً لهُ مضت فلا يدري ايودُّ ان تعود او يقنع بحاضره حتى كاد قاربهُ يصطدم بصخرة بارزة من جبل فنظر واذا بهِ يرى صليباً صغيراً بارزاً مقاماً على جانب الصخر فاقترب جهدهُ بقاربهِ الى الصليب فاذا بهِ ذكرى شاب وشابة قضيا في تلك الناحية وعلى هذه الصخرة

فاستولت عليهِ سوداؤهُ واخذ يعيد في خيالهِ موقف الحبيبين من تلك الصخرة كيف وقعا هل ماتا تدحرجا على الصخور من فوق او غرقا في الماء من تحت . بل هل مات الواحد فانتحر الآخر ولحق بهِ حزناً عليهِ وهل جزعا للموت ولا تناهيا حبهما؟ ام ضحكا للموت ضحكهما للحياة ؟

ولماذا يغدر لهذين المسكينين ميتة كهذه وهؤلاء الآخرون يمرحون ويلعبون

اني مثل هذا المكان والهواء والماء عليلان والشمس ضاحكة تداعبها النسيم والازهار فرحة والطيور منردة يجوز لعاشق ان يموت! او ليست الحياة في لحظة حب فاذا تمتع المحب بهذه اللحظة فما هو الغرض في الحياة بعدها . . . . . ما هذا ؟.. اعود الى ذكرى الصبا وتذكر مراتع الشباب . لا — ليس ذا وقت الزيارة . فاذهبي بسلام

***

ووقعت اقدام الرفيق الانكليزي على الحصا فذعر صاحبنا وفتح ذهنهُ وزال عنهُ كابوسه واستقبل رفيقهُ باسماً قال . هل رأيت مثل هذا الجمال ؟

— الانكليزي — شيء جميل جداً . ولكن تعال معنا الى انكلترا ترَ اجمل من هذا

— المصري — ان شاء الله

سامي الجريديني